كونفوشيوس .. الأب الروحى للثقافة الصينية

شيرين ماهر
باحثة بالهيئة العامة للاستعلامات

الملخص:

تتمتع الثقافة الصينية بحضوصية تنطوي على أبعاد قيمية وروحانية، مما جعل لها حضوراً قوياً فى القارة الأسيوية.. يعد "كونفوشيوس" أهم فلاسفة الصين وأكثرهم تأثيراً فى الثقافة الصينية وسلوك المجتمع الصيني. لقد ظلت "الكونفوشيوسية" هى الأكثر تأثيراً فى الفكر الصيني،والتساؤل الهام لماذا حظى "كونفوشيوس" تحديداً بمثل هذا الحضور الروحي والتأثير المعرفي الممتد؟ هذا يعود إلى المرجعية الأخلاقية التى استند إليها فى أفكاره، واستخلاص تجارب الماضى والإعلاء من التقاليد والأعراف القديمة، فقد أظهر إهتماماً بالغاً بأفكار سابقيه، وعمل طوال حياته على ترتيب موروثهم الفكري، حيث لخص كونفوشيوس عقود حياته بكلمات مفتاحية عاكسة عن جوهر فلسفته الروحية، إذ تعد "الأخلاق" مركز أفكاره التى يدور حولها ذهاباً وإياباً. وفى كل مرة يعود مقترباً أكثر إلى المساحة الأكثر عمقاً من الناحية القيمية. يعد مفهوم "التناغم" أيضاً هو الأبرز في الثقافة الكونفوشيوسية، سواء بين الإنسان والآخر، أو الإنسان والطبيعة، والذى يتحقق من خلال التفاهم والعطاء المتبادل.

Abstract:

Chinese culture is characterized by the value and spiritual dimension, which made it a remarkable presence in the Asian continent. "Confucius" is considered the most important Chinese philosopher and the most influential in Chinese culture and the behavior of Chinese society. Confucianism remained the most influential in Chinese thought and permeated Chinese culture. But why did "Confucius" in particular have such a spiritual presence and an extended cognitive influence? This is due to the moral reference on which his ideas were based, and the extraction of past experiences and exaltation from ancient traditions and customs. He showed great interest in the ideas of his predecessors, and worked throughout his life to arrange their intellectual inheritance. Confucius summarized the decades of his life in key words that reflect the essence of his spiritual philosophy, as "ethics" is the center of his thoughts that he revolves around back and forth. And each time he returns closer to the deeper space in terms of value. The concept of “harmony” is also the most prominent in Confucian culture, which means harmony between man and the other, and between man and nature, this harmony-according to Confucianism- is achieved through mutual understanding and giving.

مقدمة :

كونفوشيوس.. فيلسوف الصين العظيم الذي مجَّده البُسطاء وعظم فكره العلماء.. فلسفته كانت مصدر دساتير العديد من الملوك، وأثره على الأجيال ما زال يلهم الآباء. ثالوثه القيمى (الأخلاق، الإخلاص، الحكمة) ظل يهذب سلوك المجتمع الصيني وامتد أثره فى الصين المعاصرة، سواء من خلال العادات والتقاليد، أو تيارات "الكونفوشيوسية الجديدة"، أو الزخم المستمر الذي تثيره أفكاره المتوارثة بين المثقفين، فيما جاءت مبادرة تأسيس "معاهد كونفوشيوس" في مختلف أنحاء العالم، لتشكل إعترافاً رسمياً من الجمهورية الصينية المعاصرة بمكانة هذا المفكر الفذ، التى لا تزال محفوظة في حاضر ومستقبل الصين. والواقع أن الثقافة الصينية دائماً ما انطوت على قوة خفية يلعب فيها البعد القيمي والروحاني دوراً غاية فى الأهمية. وعلى الرغم من ظهور العديد من المدارس الفكرية الصينية، إلا أن الكونفوشيوسية كانت دائماً الأكثر تأثيراً في جوهر الثقافة الصينية ودائماً ما كانت المرتكز الأهم في الثقافات الأسيوية وتحديداً؛ الصينية والكورية واليابانية والتايوانية والفيتنامية.

وعلى الرغم من الضربات القوية التي وجّهت للكونفوشيوسية في فترات من التاريخ الصيني الحديث، إلا أن أفكار كونفوشيوس ظلت الأكثر تغلغلاً في الثقافة الصينية ولا تزال راسخة فى وعي المجتمع الصيني وفى خلفيته المعرفية.. ويبقى السؤال المثير للفضول : لماذا حظي كونفوشيوس بمثل هذا الحضور الروحي والتأثير المعرفي العميق في الثقافة الصينية ؟ وهذا ما نستعرضه معاً...

الكونفوشيوسية .. ركيزة الفلسفة الصينية

تزامن ظهور الفلسفة الصينية فى الفترة التى ظهرت فيها الفلسفة اليونانية القديمة، أى بين القرن السادس والقرن الثالث قبل الميلاد. وهى منذ ظهورها، ولمدة تُقارِب الألفَى عام، نمت بمعزل عن الغرب، إذ لم يبدأ التأثير االغربي على التيارات الفكرية فى الصين إلا مع وصول الإرساليات اليسوعية إليها فى القرن السادس عشر. وهذه العزلة الفكرية الصينية، أكسبتها خصوصية تُحسَب لها.

ظهرت الكونفوشيوسية في القرن السادس قبل الميلاد، بظهور كونفوشيوس نفسه. والفترة الفاصلة بين القرن السادس والقرن الثالث قبل الميلاد، والتى ظهر فيها أيضا المُريدان الأساسيان لفكر كونفوشيوس وهُما منسيوش وشونزى، كانت حقبة تحولات سياسية واقتصادية واجتماعية كبيرة فى بلاد الصين (التى تضمنت وقتها مساحة كبيرة تقع على ضفتَى النهر الأصفر، فى شمال شرق جمهورية الصين الشعبية اليوم). أتت هذه الفترة فى أعقاب انهيار حكم سلالة الجو، التى حكمت المنطقة نحو ٨٠٠ عام، وحلت محلها دويلات صغيرة تنازعت على السلطة. وبسبب انهيار النظام الإقطاعى الذى حكمت من خلاله سلالة الجو، شهدت هذه الفترة حراكاً اجتماعياً كبيراً مهَد لظهور حركاتٍ فكرية متعددة كانت الكونفوشيوسية تياراً منها (ولكنه التيار الذى فاز بتبنيه من قبل السلالات الحاكِمة اللاحقة).

لم تتوحد الدويلات الصينية تحت حُكمٍ إمبراطوري من نوعٍ جديد إلا فى عام ٢٢١ قبل الميلاد تحت حكم "التشين" الذين لحقهم سريعاً "الهان"، حيث جعلوا من الكونفوشيوسية أساساً لشرعية حكمهم، فاستمر الحكام الصينيون فى ذلك أكثر من ألفَى عام، أى حتى الحقبة الماوية فى القرن العشرين. ومع فشل الشيوعية كأساس للحُكم، عادت الكونفوشيوسية تدريجياً إلى واجهة الحُكم فى الصين، والدليل على ذلك، على صعيد العلاقات

الدولية، اهتمام الحكومة الصينية فى السنوات الأخيرة بإنشاء المعاهد الكونفوشيوسية فى بلدان كثيرة، منها بلدان عربية.

والواقع أنه يصعب تصنيف الكتابات الكونفوشيوسية فى ميدانٍ معرفى محدَد. فهى ليست فلسفية، بمعنى أنها لا تقدِم حججا تدافع من خلالها عن أفكارها كما يفعل أفلاطون مثلا. كما أنها ليست دينية، إذ تخلو بصورة شبه كاملة من الميتافيزيقيات، فتكون بذلك مختلفة أشد الاختلاف عن التيارات الآسيوية الأكثر شهرة كالبوذية. هى أقرب ما تكون إلى نهج فكرٍ مجتمعى يرنو إلى توسيع علاقة الأفراد بالمجتمع.

الكونفوشيوسية .. تلخيص لتجارب الماضي و رؤية للمستقبل

استطاع الصينيون على مدى آلاف السنين أن يشكّلوا ثقافة غنية ومتميزة. وقد كانت الثقافة الصينية دائماً الزاد الروحي الذي تتسلح به الأمة الصينية في رحلة تقدمها عبر التاريخ، إلى جانب اللغة المشتركة والمجال الجغرافي المشترك والحركة الإقتصادية المشتركة وغيرها من العوامل الموحدة لأي أمة. ومما لا شك فيه أن الثقافة الصينية أيضا تمتلك هذه "الخصائص النفسية المشتركة" التي تشكّلت على مرّ تاريخ طويل. فمن جهة، هناك أسس مادية مرتبطة بالحركة الإقتصادية أسهمت في تكونها. ومن جهة ثانية، هناك أسس فكرية ذات إرتباط وثيق بالتربية الإجتماعية. وهذه "الخصائص النفسية المشتركة" التي تعبر عنها الثقافة، تتشكل تدريجياً من خلال توجيهات وتربية مفكرين ومعلّمين كبار لهم بصمتهم العميقة في الثقافة.

كونفوشيوس الملقب بـ "نبي الصين" .. هو أول فيلسوف صيني ينجح في إقامة مذهب يجمع كل التقاليد الصينية حول السلوك الاجتماعي والأخلاقي، حيث تقوم فلسفته على القيم الأخلاقية الشخصية وعلى أن تخدم الحكومات الشعب تطبيقاً لـ "مُثل أخلاقية" عُليا. يعد "كونفوشيوس" أيضاً الشخصية الأهم والأكثر تأثيراً في بلورة وتطور "الثقافة المشتركة" و"الخصائص النفسية المشتركة" لدى الصينيين. وليس هناك أي شخصية أخرى في تاريخ الصين، يضاهي دوره في هذا الجانب.

كان محافظاً في نظرته إلى الحياة. فهو يؤمن بأن العصر الذهبي للانسانية يتجلى في العودة إلى الماضي. لذلك كان شديد الميل إلى إرث الأسلاف ويدعو الناس إلى استرجاع قيمه. و لكن الحُكام فى ذلك الوقت لم يكونوا يؤيدونه، لذلك لقي بعض المعارضة. وقد اشتدت هذه المعارضة بعد وفاته ببضع مئات من السنين، عندما حكم الصين عدد من الملوك، حيث أحرقوا مؤلفاته وحرّموا تعاليمه. لأن الشعوب يجب أن تنظر أمامها وليس خلفها. ولكن ما لبثت تعاليم كونفوشيوس أن عادت أقوى مما كانت عليه وانتشر تلاميذه وكهنته في كل مكان. واستمرت تعاليمه وفلسفته تتحكم في الحياة الصينية قرابة عشرين قرناً، إذ تمكنت أفكاره ونظرياته من التغلغل بعمق فى نسيج الثقافة الصينية، لأنه عكف على استخلاص دعائم الثقافة الصينية القديمة التي نشأت منذ المجتمع البدائي وحتى عهود شيا وشانغ وتشو (2224 ق.م- 256 ق.م). الآن، ننظر إلى كونفوشيوس على أنه شخصية ظهرت قبل زمن طويل. لكن في الحقيقة، قبل ظهور كونفوشيوس كان هناك تاريخاً طويلاً للثقافة الصينية، إمتد لقرابة من 2000 إلى 3000 سنة، وحرص هو على استذكاره واستعادته.

لقد أظهر إهتماماً بالغاً بأفكار سابقيه، وعمل طوال حياته على ترتيب الموروث الفكري لعصور "شيا وشانغ وتشو" منذ عهد ياو وشون. كما تجلى وفائه لأفكار أسلافه في قوله: " أروي وأشرح أفكار السابقين، ولا أبتدع كما يحلو لي، وأثق في أفكار السلف وأحبها" وقد وصفه تلميذه "منغ زه" بأنه : "الجامع الأكبر"، إعجاباً بالجهد

الكبير الذي بذله معلمّه في جمع واستخلاص روح الثقافة والأفكار القديمة، ليصنع منها شيئاً فريداً يشبه التمائم. لذلك، لم تهيمن أفكار كونفوشيوس من فراغ على المجتمعات الأسيوية، بل كانت تستند إلى أسس تاريخية قوية. وهو ما مكّنها من التأثير بشكل عميق في تطور الثقافة الصينية الحديثة.فقد كان كونفوشيوس "وارثاً مخلصاً" و"مجدداً أميناً" في نفس الوقت. فمن جهة، أجرى تلخيصاً نظاميا للأفكار السابقة لعصره. ومن جهة ثانية، فتح آفاقاً جديدة لتطور الثقافة الصينية.

"الطقوس".. فى رؤى كونفوشيوس

يفضِل كونفوشيوس حُكم الطقوس على حُكم القانون، أى أن يتم تنظيم المجتمع من خلال تقاليد مُتوارَثة من جيلٍ إلى جيلٍ بدلاً من أن يتم من خلال تعليمات يُطلقها الحاكِم. والمنظومتان، أى القانون والطقوس، مبنيتان على الإكراه، ولكن القانون مَبنى على أنواعٍ مادية من العقاب (كالسجن مثلاً) تفرضه الدولة، بينما الطقوس يفرضها المجتمع نفسه على أعضائه، من خلال أنواعٍ من العقاب غير مادية مثل «الوصم والنبذ»، تثنى أفراد المجتمع عن الخروج عن الطقوس. ومفهوم الطقوس هذا أساسه تفاؤل فى قدرة الإنسان على التماثل بالقيَم الأخلاقية والمجتمعية.

طقوس العزاء، على سبيل المثال، هى من أهم الطقوس التى يشجعها الكونفوشيوسيون. وهدفها من جهة تسهيل ألم الفقدان من خلال التركيز على خطواتٍ ومَراسِم معينة تستمر لأشهر عديدة. ومن جهة ثانية، فإن هدفها تشجيع الفضيلة والعلاقات بين الناس، وكذلك احترام الأهل والتشبه بهم حتى بعد رحيلهم؛ إذ تتمثل أهم الفضائل التى يشدِد عليها الكونفوشيوسيون فى كون طقوس العزاء بالنسبة إلى الأهل أهم من طقوس العزاء نفسها. وتختلف طقوس العزاء نفسها بحسب الرتبة التى يحتلها المُعزى به، فكلما علت رتبته طالت فترة العزاء، واختلف نوع القبر المُستخدَم أيضاً. والهدف من ذلك الدلالة على التراتبية.

لقد ارتبطت الصين والكونفوشيوسية فى الصورة التى بناها عنها الغرب، فى كتابات ماكس ويبر، بالتراتبية الجامدة والجمود الاجتماعى. وقد تؤدى هذه الصورة إلى الاعتقاد بأن الكونفوشيوسيين تبنوا التمييزات الإقطاعية نفسها التى كانت شائعة فى الصين القديمة قبل دخولهم الساحة الفكرية. ولكنهم وبالعكس، كانوا، كغيرهم من مفكرى الصين فى تلك الحقبة، من مشجعى الحراك الاجتماعى الذى واكبها. وقد عبر كونفوشيوس عن رفضه القاطع للتمييزات الإقطاعية، مؤكداً على غياب الفوارق بين البشر عند الولادة، ومن الأقوال المنسوبة إليه: «فى الطبيعة مُتشابهين، فى المُمارسة مُختلفين». إن التراتبية التى ترتكز عليها المنظومة الكونفوشيوسية هى فى الحقيقة تراتبية مبنيَة على الجدارة الأخلاقية وليس على الموروثات الاجتماعية أو الاقتصادية.

السؤال الجوهرى الذى يطرحه هذا الجانب من الفكر الكونفوشيوسى هو كيفية التوفيق بين المساواة عند الولادة والتراتبية فى المجتمع. فالفكر اليونانى القديم يركِز فى المقابل على الاختلافات فى الطبيعة من جهة (من هنا قبول أفلاطون وأرسطو بمفهوم العبودية، بينما ليس لدى المفكرين الصينيين مفهوم مشابه)، وعلى المساواة فى الحياة السياسية من جهة أخرى (من هنا الفكرة الديمقراطية لدى اليونانيين والتى لا نجدها فى الصين القديمة).

"الأخلاق" .. جوهر الفلسفة الكونفوشيوسية

محور نظام "المعايير الخلقية" التي طرحها كونفوشيوس هو الرحمة وحب الناس لبعضهم بعضاً، حيث يقول: "لا تفرض على غيرك ما لا تحبه لنفسك". فقد احترم كونفوشيوس الآداب الاجتماعية ودعا إلى تهذيب أبناء الشعب بالآداب الاجتماعية لتغرس في قلوبهم الرحمة وليهتموا بالمراتب الاجتماعية، من الكبير إلى الصغير في سبيل الحفاظ على انضباط ووئام الأسرة والمجتمع. كما اهتم بالأخلاق وأعلاها على المصلحة الخاصة، مؤكداً على دور الأخلاق في حكم البلاد. كما دعا إلى الحكم الرحيم وتحقيق الخير الاقتصادي لأبناء الشعب والعقاب الخفيف والتعليم السياسي لأبناء الشعب، حيث يقول فى أحد أقواله المأثورة التى تلخص مسيرته الحياتية: **"وقتما كنت في الخامسة عشر كرست نفسي للاطلاع، فلما بلغت الثلاثين توطدت معلوماتي، وفي الأربعين زالت شكوكي. وفي الخمسين ميزت إرادة السماء، وفي الستين كنت مستعداً للإصغاء إليها، وفى عامي السبعين تيسر لي إطاعة رغبة قلبي دون أن أتجاوز عما هو حق".**

والواقع أن كونفوشيوس سبق أفلاطون بمدينته الكاملة وفضائلها، فكان ملكاً دون أن يتوج أو يحكم، واكتفي بأن يكون إنساناً، حيث استند فى فلسفته إلى ستة مراجع هامة شكلت حجر الزاوية للفلسفة الصينية وهى: كتاب التغيرات، كتاب الأناشيد، السجلات التاريخية، كتاب الطقوس، حوليات الربيع والخريف وكتاب الموسيقى. وكان كونفوشيوس يستخدمها في تثقيف مريديه وتلامذته، وقد استند في كثير من تعاليمه إلى كتاب التغيرات الذى استعان به في رسم معالم الطريق إلى المدينة الكاملة.

هذا الكتاب له أثر مهم في حياة منطقة شرق آسيا، إذ يستند إلى عنصري «ين» و«يانج»، وهي متوالية القيم والمعاني، التى تشير إلى الخير والشر، الظلمة والنور، الذكر والأنثى، الحار والبارد، النار والماء، السماء والأرض... هذا الكتاب يرشد الإنسان للصلاح، ويضع أمامه الصورة الواضحة ويرسم له الطرق، لحل المشكلات بطريقة عقلانية ومدروسة. لقد استند كونفوشيوس إلى هذا الكتاب الهام في جزء من فلسفته، حيث قرأ ما كان في زمانه من فلسفة وحكمة وجمعها في نص خاص به أضفى عليه حكمته، و جمع فيه ما تناثر من فضائل. حيث كان يرى إن «العصر الذهبي للإنسان" يستند إلى "العودة إلى الماضى".

لخص كونفوشيوس عقود حياته بكلمات مفتاحية عاكسة عن جوهر فلسفته الروحية، إذ تعد "الأخلاق" مركز أفكاره التى يدور حولها ذهاباً وإياباً. وفى كل مرة يعود مقترباً أكثر إلى المساحة الأكثر عمقاً من الناحية القيمية، وهو ما يعكس الدور المؤثر الذي لعبته "الأخلاق" في تطور الثقافة الصينية، إذ يقول عن علاقة الإنسان بالأخلاق: "إن النبيل من جعل الأخلاق أعلى المراتب"، حيث يرى أن الأخلاق هي الشيء الأعلى قيمة في هرم حياة الإنسان. ويضع مفهوم (الران) في مرتبة القيمة العليا للأخلاق، وهذا المفهوم في معناه الضيق هو: "حب الآخر"، لكن بمفهومه الأكثر رحابة له علاقة متحركة داخل المجتمع، تعني "تبادل الفضيلة بين أفراد المجتمع". يشرح كونفوشيوس هذه العلاقة القائمة على " حب الآخر" بقوله: "فقط حينما تعامل الناس بقلب مُحب، سيعاملك الناس بالحب، وحينما تعاملهم بتسامح سيعاملونك بتسامح". غير أن مفهوم "الران" في الكونفوشيوسية، لايتوقف عند تبادل الفضيلة. بل يعني أيضاً أن تحب للآخرين ماتحبه لنفسك، فإذا كنت تريد التقدم، يجب أن تساعد الآخرين على التقدم أيضاً.

تظهر أهمية الأخلاق لدى كونفوشيوس في تقديمه "الفضيلة" على "الحياة". فهو يرى أن الإنسان عليه، في بعض الحالات، أن يضحي بحياته من أجل تحقيق الفضيلة، حيث يقول: "صاحب العزيمة والفضيلة، لايقبل

التضحية بالفضيلة من أجل الحياة، بل يقبل التضحية بالحياة من أجل الفضيلة". وهذا لايعني ميل كونفوشيوس إلى الزهد، ولكن على العكس، يرى أن هناك تلازم بين الحياة المعنوية والحياة المادية. ويعتقد أن الحياة المادية هي أساس وجود القيم المعنوية لدى الإنسان، فعندما تتم معالجة المشاكل المادية التي يعانيها الإنسان، يمكن رفع المستوى الأخلاقي للمجتمع.

هناك عبارة شائعة في الثقافة الصينية تصف البنية الإيمانية والأخلاقية لدى الصينيين، تقول : "الكونفوشيوسية لإصلاح "العالم". وتعني أن الكونفوشيوسية تهتم بإدارة المجتمع، وتهذيب الروح. وإذا توسعنا أكثر في مفهوم (العائلة، الأسرة والعشيرة) في الثقافة الصينية، يمكن أن نصل إلى مفهوم الدولة. وهذا المفهوم يختلف عن الدولة في الثقافة الغربية، فسواء كلمة "country" أو "state"، لايحتويان على معنى "العائلة". أما في اللغة الصينية فيتكون مفهوم الدولة من مُصطلحين : "الدولة" + "العائلة". ويمكن تغيير ترتيب الكلمتين، لكن المعنى يبقى نفسه. لأن الدولة في الثقافة الصينية تمثل "العائلة الكبيرة"، والعائلة تمثل"الدولة الصغيرة". لذلك فإن التراتبية العمودية "من الأعلى إلى الأسفل"، والتراتبية الأفقية "من الداخل إلى الخارج" شديدة الصرامة على مستوى الدولة أيضاً. وقد تأسست نظريات كونفوشيوس على هذا الأساس.

يتلخص المذهب الأخلاقي والسياسي عند كونفوشيوس في أن أي نظامٍ اجتماعيّ صحيحٍ ومتكامل، إنما يقوم على تزويد الأفراد بالأخلاق الحميدة، وهذا يتحقق بالتربية والتعليم إلى جانب وجود حاكمٍ على خلقٍ قويم، يكون قدوةً لشعبه ونموذجاً يحتذي به الجميع. ويرى كونفوشيوس أن الأخلاق إذا وصلت في المجتمع إلى مستواها المنشود أغنت عن القوانين والتشريعات والقضاء. وأن الفرد إذا ما تم تعليمه وتربيته أخلاقياً، فإنه سينقل ذلك إلى أسرته، ومن الأسرة إلى المجتمع، ومن ثم إلى الإنسانية كلها. كما يرى أن على الحاكم أن يكون «أباً» للشعب، يكرس نفسه له، ويعطف عليه، ويستمع لصوته. وقد حاول كونفوشيوس أن يرطب حياة الناس الجافة عن طريق الموسيقى، إلى جانب بعض الفنون الأخرى كالشعر والغناء، لكي يرهف مشاعرهم ويعودهم على الإيقاع المنتظم، بهدف تقريبهم من قانون الطبيعة المتناغم الذي يتوازى تماماً مع القانون الأخلاقيّ في الإنسان الأول. وبهذا الشكل استطاع أن يقدم للصينيين مذهباً تقوم أركانه على الأخلاق والسياسة والطقوس الدينية المتوارثة، ثم الآداب والفنون، وهو الأمر الذي جعلهم يعتبرون الكنفوشيوسية (ديانة) ما زالوا يتمسكون به حتى اليوم.

يعد مفهوم ‘‘التناغم’’ أيضاً هو الأبرز في الثقافة الكونفوشيوسية، الذي يعني التناغم بين الإنسان والآخر، وبين الإنسان والطبيعة. هذا التناغم وفق الكونفوشيوسية يتحقق من خلال التفاهم والعطاء المتبادل. وينعكس على سلوك الفرد والأسرة والمجتمع ككل. ورغم أن الكونفوشيوسية متداخلة بشكل كبير جدا في كل جوانب حياة الشعب الصيني لا ينظر لها باعتبارها ديانة روحية، ولم يحدث أن تم تشكيل أي مكونات لاعتناق فكر كونفوشيوس باعتباره ديانة. وعلى مر التاريخ لم تعرف الكونفوشيوسية كديانة، لكن الكونفوشيوسية أثرت كثيرا في إعادة بناء الصين، خاصة مع بدء سياسة الإصلاح والانفتاح قبل أربعين عاما.

"منتخبات كونفوشيوس".. نظرة إلى الأعماق

يوجد مصدران رئيسيان للتعرف على أفكار كونفوشيوس، وهما: "منتخبات كونفوشيوس" و"حوليات الربيع والخريف"، وهما المؤلّفان الوحيدان اللذان جرى الإجماع على نسبتهم إلى كونفوشيوس من بين العديد من

المصادر الأخرى. ومن خلالهما يمكننا القول بأن كونفوشيوس كان مفكراً ومعلماً عظيماً، وفيلسوفاً نجح في إرساء الأسس الفكرية لتطور الثقافة الصينية.

تعني كلمة «مُنتخبات» جزء أو مُسْتَخْلَص من الأدب، أو مجموعة من التعاليم والوصايا. وفي حالة كونفوشيوس، فإنها تعود لمناقشة أو استبدال لفظي وكلامي للمبادئ المعنوية والأخلاقية. وقد أخذت «مُنتخبات كونفوشيوس» شكل تعاليم وأفكار كونفوشوسية، الى جانب من حوارات جزئية بين الفيلسوف ومُريديهِ. وقد جى تأليف وتدوين «المُنتخبات» مِن قِبَل أتباع كونفوشيوس في فترة الدول المتحاربة (221-475 قبل الميلاد) حيث تُعْتَبَر هذهِ المنتخبات مِن بين الأكثر من أعمال كونفوشيوس تمثيلًا لفكرهِ، وهي لا تزال تُؤثِّر في الثقافة الصينية وشرق آسيا.إنّ الكثير من العلماء والمفكرين يعتقدون بأنّ هذهِ المُنتخبات قد تمَّ تنقيحها الى صورتها النهائية خلال سُلالة هان الوسطى الحاكمة (م220-206 ق.م.) لتصبح نصًّا مركزيًا للثقافة الصينية. وبكونها تُعْتَبَر كعمل تأسيسي في التربية الصينية لألفي سنة تقريبًا، فقد استمر استخدامها رسميًا في امتحانات الخدمة المدنية حتى السنوات المبكرة من القرن العشرين، وعلى الرغم من تعرض هذه «المُنتخبات» للهجوم في ظل الثورة الثقافية في الستينيات، إلا إنّها استمرت في تشكيل وصياغة الفضيلة وأفكار ملايين الصينيين، مؤيدين وداعمين الفضائل المركزية للياقة والذوق، العدل ـ النزاهة، وطاعة الأبناء للوالدين.

تطرح "منتخبات كونفوشيوس" ثلاث ركائز رئيسية فى الفكر الكونفوشيوسي: أولاً، الروح العملية؛ ثانياً، الإعلاء من شأن الأخلاق؛ وثالثاً، إرساء تقاليد تقدير التجربة التاريخية. وعلى الرغم أن كونفوشيوس يؤمن بالقضاء والقدر، لكنه ليس الشخص الذي ينتظر ترتيبات الأقدار. بل يؤمن بضرورة بذل الإنسان كل مافي وسعه للوصول إلى أعلى المراتب. حيث يقول "إذا تعلّمت فلا تقْنع، وإذا علّمت فلا تكلْ". وفي حديثه عن حياته يقول: " انهمكت في العمل (الدراسة) حتى نسيت الطعام، وفي السعادة حتى نسيت الخوف، ودون أن أشعر وجدت العمر قد جرى بي." ويقول أيضا "كم سيء ان تكتفي بملء البطن دون أن تفعل شيئاً مفيداً في يومك". فروح العمل والإنجاز تبدو جلية في كامل أركان البنية الفكرية لـ "كونفوشيوس".

لقد كان كونفوشيوس مُنظّراً سياساً بارعاً، ويقوم فكره السياسي على ثلاثة نقاط رئيسية: الحُكم وفقا للأخلاق؛ مركزية السلطة؛ معارضة الإستبداد الفردي وإحتكار السلطة، حيث يولي أهمية كبيرة لدور الأخلاق في السياسة، ويطالب الحاكم بأن يعطي القدوة الأخلاقية للناس، حيث يقول في هذا الجانب : "السياسة هي الإستقامة، فإذا كان الحاكم مستقيماً، هل سيجرؤ المحكوم على ألا يستقيم؟."

أُنتقدت أفكار كونفوشيوس بأنها محافظة، أو إحيائية (تبعث الماضي)، حيث هناك من رأى أن كونفوشيوس عمل على حماية " نظام حكم الشعائر الأخلاقية " لأسرة تشو. لكن في الحقيقة هو لم يعتبر هذا النظام أبدياً وكاملاً. فهو يراه بمثابة تراكم وتطور لنظامي حقبة "إين" و "شيا" السابقتين، وقوله "أنا أتّبع نظام تشو"، لا يعني نظام الأسرة في حد ذاته، وإنما التطور الذي وصل له "نظام حكم الشعائر الأخلاقية" في هذه المرحلة. في ذات الوقت كان يرى بأن هذه المرحلة مفتوحة على مزيد من التطور والتحسن في المستقبل. وقد تبنى كونفوشيوس على نظرية الفيلسوف "زي تشان" الشهيرة: "طريق السماء وطريق البشر لا يتقاطعان".

لقد كان طموح كونفوشيوس خلال كامل حياته، أن يُغير "العالم الصيني" نحو المبادئ التي يدافع عنها، ولم يكن نشاطه ثورياً، بقدرما كان نشاطاً يطمح إلى تأسيس "النظام المثالي"، حيث تعرّض خلال حياته إلى التهجير

والنفي بسبب أفكاره، لأنه كان يرى ما لاتراه الطبقة الحاكمة، فقد كان ينظر من زاوية طويلة المدى لإستقرار النظام والمجتمع، في ظل إتجاه الصين للتحول من المجتمع العبودي نحو المجتمع الإقطاعي. لذلك، كانت أفكاره تندرج ضمن متطلبات تطورالمجتمع الصيني في ظل الواقع الجديد.

"الكونفوشيوسية الجديدة" في مواجهة "الليبرالية"

تسمى الفلسفة المثالية الكونفوشيوسية في فترة أسرة "سونغ" بـ "الكونفوشيوسية الجديدة"، لأنها استفادت من بعض الأفكار البوذية والطاوية، وكان اهتمامها هو العلاقة بين التهذيب الذاتي والسياسة الاجتماعية، فيما تؤكد هذه الفلسفة على الوعي الأخلاقي والالتزام بمعيار الأخلاق الإقطاعية والبعد عن الرغبة الذاتية. فإذا كانت الكونفوشيوسية هي الفكر الأكثر تجذراً في الصين منذ القديم وحتى اليوم، فإنها تشهد في الفترة الأخيرة نوعا من «النهوض» ، حيث تستند "الكونفوشيوسية الجديدة" إلى الفكر الكونفوشيوسي وتضعه في قالب حديث. ففي الكونفوشيوسية الحديثة نعتبر أن المستقبل يمكن بناؤه على الماضي الجيد، إذ ترى الكونفوشيوسية أن الفكر والمعتقدات يمكن أن تتطور، استناداً إلى التعامل مع القيم القديمة بروح الحاضر، ووفقاً لشروطه.

كانت القرون التي تطبعت بالكونفوشيوسية، بالنسبة لنهوض اقتصاد شرق آسيا الصاعد، على نفس القدر من الأهمية التي شكلتها لظهور البروتستانتية واقترانها بنشوء الرأسمالية في الغرب. وما زالت العقائد الكونفوشيوسية تزود غالبية منطقة شرق آسيا ببوصلة داخلية في عصر ما بعد الكونفوشيوسية، تماماً كما ظلت نصائح الكتاب المقدس تمثل المعايير التي يتبناها الغرب في عصر ما بعد التدين، حيث تشكل الكونفوشيوسية، في الأساس، تبريراً فلسفياً لحكم البيروقراطية الخَيِّرة في ظل حاكم فاضل. وكانت الفضيلة بمثابة الضمان للتآلف والانسجام بين الإنسان والطبيعة، كما كانت مسوغاً للطاعة في ظل مجتمع طبقي. عبرت أيضاً إحدى الكلاسيكيات الكونفوشيوسية عن هذا المفهوم في العبارة التالية: ‘‘إن امتلاك الفضيلة يمنح الحاكم شعباً، وامتلاك الناس يمنحه الأرض، وامتلاك الأرض يمنحه الثروة، وامتلاك الثروة يمنحه موارد الإنفاق. فالفضيلة إذاً هي الأصل؛ والثروة هي الفرع".

ان «القمع» الذي تعرّض له كونفوشيوس في بلاده لم يجعل مكانته تتراجع في الوسط المحيط بالصين. لقد بقي موضع احترام وتبجيل، بل وما يقارب «التقديس» في هونغ كونغ واليابان وكوريا الجنوبية وتايوان «الصين الوطنية سابقا»، أي في مختلف البلدان التي تحظى فيها الكونفوشيوسية بتواجد كبير منذ القدم. ومن هذه المناطق المحيطة انطلقت مجموعة من الحركات التي جعلت من الأفكار الكونفوشيوسية المحرّك الأساسي لإرساء أسس ما اتفق على تسميته بـ «القيم الآسيوية» التي تتسم بعدد من الخصائص والسمات المميزة، وذلك في أفق محدد هو المساهمة في تطوير المجتمعات المعنية بها.

كانت تلك الحركات قد انطلقت عملياً منذ مطلع عقد التسعينات الماضي، ومع زوال الاستقطاب الثنائي الدولي بين معسكرين، غربي رأسمالي، وشرقي اشتراكي. كما بدأت نقطة انطلاق «النهضة» الجديدة في الفكر الكونفوشيوسي من المحيط إذن، لكن سرعان ما أدرك المركز الأساسي لهذا الفكر المتمثل في الصين ضخامة الرهان، ومدى الكسب الذي يمكن أن تحققه من هذا الاستنهاض الفكري الجديد الذي يؤكد على مقولة التراتبية، أي ما يعني احترام السلطة القائمة.

ومثل هذا الاحترام موجود في عمق التعاليم الكونفوشيوسية. والدليل على عودة الكونفوشيوسية «المتجددة» إلى الصين، لجوء السلطات الشيوعية نفسها إلى إعادة طبع «تعاليم كونفوشيوس» و«قانونه» بملايين النسخ وتوزيعها على نطاق واسع. وكذلك بروز ظاهرة جديدة تمثلت في افتتاح عدد كبير من «الأكاديميات الكونفوشيوسية» في مختلف أنحاء البلاد مع تخصيص آلاف المنح الدراسية واستحداث مناصب تدريسية عديدة

لقد أخذت ظاهرة توعية المجتمع والأجيال الناشئة بتعاليم الكونفوشيوسية، وبدأت في المدارس الخاصة لكنها دخلت شيئاً فشيئاً إلى المدارس الحكومية العامة. بل لجأ بعض مديري المؤسسات والمسؤولين عنها إلى دفع العاملين لديهم إلى «قراءة النصوص الكلاسيكية وقراءة أطفالهم لها أيضا» ونفس الدور تقوم فيه أيضا جمعيات أهلية أو جمعيات أطلقت على نفسها صفات لها علاقة بـ«الكونفوشيوسية"

إبان نهضة الكونفوشيوسية الجديدة أثناء القرنين الحادي عشر والثاني عشر، أضيف إليها بُعد غيبي ميتافيزيقي لسد الهوة التي فضحتها هجمات البوذية على الصين.. كما كانت إعادة تفسير تعاليم الكونفوشيوسية على ذلك النحو سبباً في استردادها لمكانتها الرائدة في الصين والدول المجاورة. وقد ظلت هذه المكانة منيعة على أي تشكيك أو تحدٍ لمدة سبعة قرون من الزمان. كذلك كانت الكونفوشيوسية الجديدة بمثابة الأيديولوجية الأساسية للدول المجاورة للصين، اليابان، وكوريا، وفيتنام، والتي ظلت مغرمة بها حتى نهوض الغرب. فقد كانت عقائدها ملائمة تمام الملاءمة للحضارات الزراعية الراقية المستقرة التي سادت شرق آسيا في فترة ما قبل القرن التاسع عشر، حيث كانت تلك العقائد تربط بين المجتمع ونظام الدولة بطريقة محسوبة ترمي إلى دعم الاستقرار والانسجام.

كان الضمان المطلق للانسجام يكمن في عدالة الحاكم، التي كانت تسمح له بالاستمتاع بـ"تفويض السماء"؛ حيث يتمتع الشعب بحق التمرد على الحاكم الطاغية، بل كان واجباً عليه أن يتمرد على الحاكم إذا ما طغى. ولكن على الرغم من أن الأسس الأخلاقية للكونفوشيوسية الجديدة كانت حاسمة، إلا أن الصينيين أدركوا أيضاً الحاجة إلى بيروقراطية تتخذ من الأخلاق حافزاً لها. ومن هنا، فقد نجحوا في القرن السابع الميلادي في تقديم أول نظام امتحان يكاد يصل إلى حد الكمال لاختيار الموظفين البيروقراطيين، مع استخدام شريعة "كونفوشيوس" كمنهج دراسي.

بطبيعة الحال، لم يكن نظام الكونفوشيوسية الجديدة حصيناً ضد شهوات الإنسان ونزواته، فقد كان العديد من أباطرة الكونفوشيوسية في غاية الوحشية، ومع ذلك فقد تحقق الاستقرار دوماً. ولم تشهد الصين سوى تغيير واحد للأسرة الحاكمة في الفترة من العام 1368 وحتى نهاية العصر الإمبراطوري في العام 1911. كما ظلت أسرة توكوجاوا شوجان، التي استكملت إعادة توحيد اليابان في العام 1600، ممسكة بزمام السلطة لفترة تجاوزت القرنين ونصف القرن من الزمان. وفي كوريا، ظل حكم أسرة يي مستقراً منذ العام 1328 حتى الغزو الياباني في العام 1910. لم تكن النزاعات الأهلية وحالات التمرد مستبعدة، ولكن في فيتنام فقط كان امتداد عمر أي أسرة حاكمة لفترة طويلة يمثل ذريعة لنشوب حرب أهلية ضروس يتعذر إخمادها.

ومثل الطفولة الآمنة السعيدة، نجحت الحضارة الكونفوشيوسية في منح رعاياها الثقة اللازمة لمواجهة التحدي المتمثل في الغرب. وبما أن الكونفوشيوسية كانت في الأساس أيديولوجية لا تعترف بإقامة أي دليل على وجود

إله، لكنها لا تنكر احتمال وجوده. كما قدمت الثقافة الكونفوشيوسية المدنية الأساس لتاريخ طويل من الحكم الذاتي الناجح؛ فقد نجح أهل شرق آسيا، على نحو يتسم بالوعي الذاتي، في الدخول إلى عالم الدول القومية الحديث في وحدات علمانية متفردة. وعلى النقيض من ذلك سنجد أن شبه القارة الهندية، ذات الديانتين الرئيستين والمجموعات اللغوية التي تزيد على عشر مجموعات رئيسة، لم تتوحد خلال العصر الحديث إلا تحت الحكم البريطاني.

أثناء القرن المنصرم، تمكنت دول ما بعد الكونفوشيوسية من التكيف مع عالم متعدد الأقطاب ذي دول قومية متكافئة على المستوى النظري. ولكن من الصعب الجزم إلى أي مدى ذهب ذلك التأقلم، فإذا كان من المفهوم أن الغرب يحاول الاحتفاظ بالزعامة منذ مائتي عام من خلال التحول إلى الصناعة أولاً، وبالتالي إنكار حق شعوب ما بعد الكونفوشيوسية في جني ثمار جهودها الديناميكية النشطة إلى الأبد. ومن هنا، فقد تتحول معارك اليوم الاقتصادية إلى صراع بين العلمانية والدين.

هكذا بدت الأفكار الكونفوشيوسية تتسم بقدر كبير من الاتزان والمقاربة، فهى لم تكن مثالية بشكل مطلق، لكنها أعطت أولوية لمبحث "الأخلاق"، وإن كان يُعاب على النظريات الكونفوشيوسية ضعف إهتمامها بالتجديد، ودعوتها إلى "الهيمنة الأخلاقية" مقابل تهميش الدور السياسي. والإهتمام بالآداب والفنون أكثر من الإقتصاد. لكن علينا ألا نكون مجحفين لطبيعة الواقع وإحداثيات الزمن خلال هذه الفترة. والواقع أن مفكري هذا العصر، باتت لديهم القدرة الكافية على إطلاق أحكام موضوعية وصحيحة تجاه أفكار كونفوشيوس، فى ضوء تقييم ناضج لثمار الكونفوشيوسية سواء الإيجابية أوالسلبية على الثقافة الصينية .